



العرفان في تاريخ الإسلام وإلى أين وصل على يد الإمام الخميني عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تجلى لعباده بأسمائه، ولأوليائه باسمه الأعظم. والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وقائدهم الذي أحاط بالرئاستين وجمع المنقبتين من سائر الأمم محمد المصطفى المتحقق بالمقام الأتم الأكمل الأعظم، وعلى آله المطهرين الذين كانوا في أتباعه أفضل من أتبع وسلّم. عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَنَا مَدِينَةُ الْحِكْمَةِ وَهِيَ الْجَنَّةُ وَأَنْتَ يَا عَلِيُّ بَابُهَا فَكَيْفَ يَهْتَدِي الْمُهْتَدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا إِلَّا مِنْ بَابِهَا»¹.

كانت البعثة النبوية الشريفة فاتحة عصر جديد في الحياة البشرية؛ عصر تفتّح العلوم والمعارف وازدهارها بصورة غير مسبوقة. وقد وضع رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار بذورًا خصبة لتخرج جنات لا نهاية لها من المعارف العظيمة، فتفتّح بعضها على مدى عصور الإسلام والمسلمين

في أطوار صعودهم وانحطاطهم.. وكان للمناخات التي نشأت في هذه التجربة الواسعة والظروف التي أحاطت بتلك البذور الياقة تأثير جلي على نتائجها وثمارها.

تلك الظروف والمناخات التي صنعها المسلمون بأيديهم أو جرت عليهم في واقعهم هي التي كانت تحدد مدى تفاعل عقولهم ونفوسهم مع هذه المعارف النبوية الولائية التي بُثت في عصر الإسلام الأول. وبفضل هذا التفاعل وقوته وطبيعته تولد عن هذه البذور توجهات وأفكار ومذاهب. كان العالم المسلم في كل أرجائه يتفاعل بحسب ثقافته الموروثة وتجربته السياسية، وينتج شتى أنواع المذاهب والتيارات والرؤى التي ينتج كل واحد منها علومًا ومعارف ظهر منها هذا التراث الإسلامي الواسع والمتنوع.

البذور الأساسية التي وضعها النبي وآله في أرض الحضارة الإسلامية كانت ترتبط بتغيير وتعميق نظرة الناس إلى الله قبل أي شيء آخر. كان المنشود أن يكون هذا التحول قاعدة متينة لإحداث جميع أنواع التحولات الاجتماعية النفسية الحضارية.

إنَّ جولة متأملة داخل أروقة التراث المنقول عن العترة المطهرة في مجال معرفة الله، ستضعنا أمام هذا المشهد الجلي، وهو أنهم ﷺ كانوا بصدد إطلاق أعظم ثورة في التاريخ، يُفترض أن تنتقل بالبشرية إلى عصر الأنوار الإلهية التي ترتقي بها إلى مصاف الملكوت.

فمعراج الأمم هو المعارف؛ وإذا كان المعراج مصنوعاً بيدي من عرج إلى مقام قاب قوسين أو أدنى، فمن المتوقع أن يرتقي بالأمّة التي تسلكه إلى ذلك الملكوت الأعلى.

دراسة تجربة المسلمين في تفاعلهم مع هذه الثورة يحتاج إلى بحث تفصيلي؛ ولا يمكن غض النظر عن الخصائص

التي ميزت هذا الشعب المسلم عن ذاك، والظروف الاجتماعية السياسية الخاصة بكل منهم. لكن، مع وجود هذه الاختلافات التي ترتبط بالجغرافيا والتاريخ، كان هناك تجارب عابرة للحدود الجغرافية، خصوصًا في أزمنة الهوية الواحدة. ما كان المسلم ليرى نفسه مختلفًا عن أخيه المسلم كما حصل في عصر تشكل الدولة القومية.

أجل، قد يكون هناك إسلام تركي وإسلام فارسي وإسلام أندلسي، لكن الإسلام الذي كان يتبلور بأنواعه وأشكاله المختلفة كان في الأغلب إسلام المذاهب والرؤى والمناهج التي تشكلت في خضم تفاعل المسلمين مع الثورة المعرفية التي أطلقها رسول الله ﷺ.

ما بثه هذا النبي وأهل بيته من معارف كان من القوة بحيث أضعف وهج وتأثير تلك الخصائص العرقية والتاريخية المميزة، شاغلًا الناس في مختلف أرجاء العالم المسلم بأفكاره وأطروحاته ومعارفه.

والذين سعوا للكشف عن ثقافات إسلامية متميزة بتمایز الشعوب والأعراق والتاريخ، كان بإمكانهم أن يجدوا الكثير من الشواهد على مقولاتهم؛ لكن ربما غفل هؤلاء عن طبيعة السياحة والانتقال والهجرة والسفر الذي كان يجري على قدمٍ وساق داخل مناطق تواجد المسلمين مع ما يجلبه من تمازج وتبادل، وهو الأمر الذي يصعب تصويره اليوم في نطاق هويات الدول القومية والحدود السياسية. القسم الأكبر من تفاعل المسلمين مع البعثة والنهضة النبوية تأثر بالعوامل السياسية واصطبغ بها، سواء كان عبر الانخراط التام بالسياسة وشؤونها أو عبر العزلة واللامبالاة. لقد كان للعوامل السياسية التي شهدت تحولات وصراعات كبرى منذ ارتحال النبي الأكرم ﷺ أشد التأثير على كيفية

تفاعل المسلمين مع تعاليم القرآن والنبوة، فأضحت العامل الأول والرئيس في تشكّل شتى أنواع المذاهب والتيارات الفكرية. وما كان استحكام أركان هذه المذاهب إلا بفضل تلك العوامل السياسية. وفي الوقت الذي كان للسياسة مثل هذا الدور التأسيسي، نجد تلك المذاهب قد عادت إلى السياسة لترد لها الجميل، وتؤمن لأنظمتها وسلالاتها ذلك الاستقرار الذي تتمناه.

غالبًا ما كانت السياسة عاملاً سلبياً قلّص من حجم التفاعل حتى كاد يقضي عليه، كما حصل في بعض الحكومات والخلافات التي كُتب لها العمر المديد. فمن المتوقع أن تنزع السلطات الحاكمة بعد استقرارها إلى تثبيط التفاعل الفكري وتقييده كحاجة عندها من أجل الحفاظ على استقرارها وديمومتها.

لكن يمكن القول بأنّ تعقيد المشهد السياسي ووجود معارضات مستمرة هنا وهناك منع من إخماد ذلك التفاعل. فقد بقيت تلك النهضة النبوية وأنبئت أشجاراً مختلفة الأحجام والثمار، ليتبلور على ضوئها تراثٌ واسع غني لا مثيل له في العالم. لقد كان لشخصية النبي وأهل بيته حضورٌ لا يمكن لأي سلطة حاكمة أو تجربة سياسية جاحدة أن تتجاوزه، فكيف إذا كانت معظم سياسات المسلمين ترى في اسم النبي وتراثه وسيلة مهمة لتحقيق الشرعية!

الاشتغال بتراث النبي والدعوة إليه ونشره أضحى أمراً راسخاً، رغم ما تعرض له من استغلال لخدمة المصالح الفئوية والمآرب السياسية. وهذا الواقع ينطبق تماماً على كتاب الله العزيز. لكن تراث النبي ﷺ الذي يطلق عليه البعض عنوان «السنة» كان أسهل تطويعاً في كل هذه

التجربة. فبالمقارنة بينه وبين القرآن، يسهل الدس فيه والوضع، رغم أن السنة فيه تكون أشد إحكامًا وأقوى حجة. «لَا تُخَاصِمُهُم بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَلٌ ذُو وُجُوهِ تَقُولُ وَيَقُولُونَ.. وَلَكِنْ حَاجُّهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصًا».²

لسنا هنا في مجال المقارنة بين أحاديث النبوة وآيات القرآن من حيث الفضل والتأثير؛ لكن لو قُدر للأمة الإسلامية ألا ترى أحاديث النبي وألا تسمع عنها شيئًا بعد صدور تلك القرارات السلطانية التي منعت تدوينها في عصر الخلفاء الأوائل، ربما ما كان لهذا التراث الكبير أن يكون بهذه السعة والعمق. لا ننس أن تفاعل المسلمين مع قرآنهم كان يمر عبر تبين الرسول الخاتم: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.³ فكل تلك الفورات العلمية والنتائج المعرفية كانت مرهونةً إلى حدٍّ كبير للتراث المميز المنقول عن النبي الأكرم وأهل بيته الأطهار (عليه السلام).

إنَّ هذا التفاعل وما نتج عنه من مذاهب لا يعني أنَّ نتائج هذه المذاهب كان لمصلحة الحركة العلمية دومًا؛ فالذين تكلموا في العقائد والمعارف الإلهية كانوا في جدال مستمر؛ فمن مذهب يعطل ويعتبر التفكير في الشؤون الإلهية محرَّمًا والبحث فيه بدعة توجب التكفير والقتل، إلى مذهب يسعى لتبرير الحكومات الظالمة والمستبدة، إلى مذهب يتعامل مع ذلك بردة فعل اعتزالية. وكان هذا الانقسام يجري على أعين السياسة ويتناغم معها.

وحين قدمت الفلسفة اليونانية إلى عواصم المسلمين بفعل حركة الترجمة، واجتاحت مجالس هؤلاء المتكلمين في العقائد، لم تتمكن من النأي بنفسها عن هذه النزاعات

المدفوعة بخلفيات سياسية.

وفي لجنة الجدل والتكفير خرجت جماعة من هذه الصراعات، ورأت في الزهد والعزلة طريقًا إلى الله. وانكبت على التراث النبوي بما يتناسب مع توجهاتها؛ لكن أتى لها أن تعتزل وتشق طريقًا آخر، وهذا التراث نفسه قد دُون وُجُمع على وقع النزاعات السياسية. لم يكن بإمكان أحد ألا يكون مسيئًا ولا يُحدّد موقفًا من قضية الخلافة التي تأسس الانقسام عليها. ولهذا، وجدنا فيما بعد تصوّفًا شيعيًا وتصوّفًا اسماعيليًا وتصوّفًا سلفيًا، وهكذا.

صحيح أن هذا التصوف كان يجمع من المشتركات ما هو أكثر من أي مذهب آخر، لأنه بُني على المحبة والمودة لأهل البيت عليهم السلام، لكن المودة بحد ذاتها لا تُشكّل ذلك الوعي المطلوب تجاه ما عبّرنا عنه بالعامل الأول لتشكّل الفرق والمذاهب، بل لعل نزعة العزلة والنأي بالنفس سلبت هؤلاء المعتزلين (ولا علاقة لهم بمذهب المعتزلة الكلامي) القدرة اللازمة لفهم مدى تأثير السياسة على الأفكار وحتى على التراث. نجدهم وكأنهم لم يسمعوا كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعلن أنّه سيكذب عليه من يأتي من بعده، بل قد كُذّب عليه في حياته الشريفة.⁴

فإذا كان تراث النبي بالخصوص فاتح عصر المعرفة الإلهية، فإنّ سقاية هذه البذور والاعتناء بها اختلف اختلافًا بيّنًا بحسب الظروف والتحوّلات الاجتماعية السياسية، ولذلك كانت الثمار أفكار ومذاهب متضادة.

ولما احتاجت السلطات الحاكمة إلى المبررات العقائدية لحكمها ظهر الكلام في العقائد وقيل إنّ أول من طرح المسائل الخلافية في هذا المجال أو سعى لاستخدام العقيدة لتبرير حكمه هو معاوية بن أبي سفيان، حين قال للمسلمين إنّ

حكمه إن لم يكن برضى الله تعالى فهذا يعني أن الله سيكون مجبراً، وتعالى الله عن ذلك! ثم جاء التيار الفلسفي على أثر ترجمة إلهيات اليونان ليوجد حالة من الجدل حول أصل الدين والشريعة؛ وكان التيار الصوفي يسير مستقلاً وعلى هامش هذه النزاعات الكلامية والفلسفية، حتى تبلور لاحقاً كمذهب عقائدي متميز على يد محيي الدين ابن العربي.

قدم كل فريق نتاجاته المرتبطة بمعرفة الله؛ وقد تأثر هذا النتاج بالمنهج البحثي الذي اعتمده إلى حد كبير. فكان علم الكلام أقرب إلى تحليل النصوص، وكانت الفلسفة أقرب إلى التحليل العقلي، أما التصوف الذي اشتهر فيما بعد بالعرفان فقد اعتمد على التعبد بالنص في عملية توسعة النفس والقلب بواسطة الرياضات الروحية والانفتاح على الآخر.

ولذلك إن وضعنا تراث كل فرقة سنلاحظ اتساعاً ملفتاً في الإنتاج عند الانتقال من الكلام إلى الفلسفة، ثم نكاد نُصعق عند مشاهدة التوسع الهائل حين ننتقل من الفلسفة إلى العرفان. وشاهدنا على ذلك ما كان يجري في الحوزات العلمية الدينية على مدى العصور. فإذا كنت طالباً في مدرسة تُحرّم الفلسفة وتزندق أهلها، فلن تدرس من معرفة الله سوى بضع صفحات من كتاب الباب الحادي عشر للعلامة الحلي. وإذا كنت تدرس عند من يؤمن بالفلسفة المشائية، فربما تدرس عدة كتب مثل الشفاء والإشارات لابن سينا. لكن وبمجرد أن تنفتح على عالم العرفان والتصوف حتى تجد نفسك في بحر لا نهاية له.

ولو كانت العلوم تُقاس على أساس المسائل المطروحة فيها، فإن نسبة المسائل المرتبطة بمعرفة الله في المدارس

الكلامية هي كواحد بالمئة مقارنة بما هو مطروح في الفلسفة. أما إذا انتقلت إلى مسائل معرفة الله في العرفان، فسوف يصعب عليك أن تضع رقمًا محددًا!

هذا التحوُّل والتوسُّع لم يكن ليدركه سوى عدد قليل من أولئك الذين امتلكوا تلك الروح المفتحة التي لم تكبلها العصبية المذهبية وبدأت جولتها في كل هذا التراث دون أحكام مسبقة. وكما استطاع الخواجه الطوسي أن يقتحم علم الكلام من بوابة الفلسفة فيرتقي بالأبحاث الإلهية فيها نقلة نوعية، فإنَّ الذين قُيِّضَ لهم أن يلجوا الفلسفة من بوابة العرفان، استطاعوا أن يعرجوا بها إلى آفاق وفتوحات لم تكن متوقعة أبدًا؛ وهذا ما حصل على يد صدر المتألهين الشيرازي وحكمته المتعالية.

صحيح أنَّ عصر الحكمة المتعالية قد بدأ بعد حوالي مئتي سنة من وفاة الملا صدرا، وذلك بفضل بعض الباحثين من ورثة حكمته، لكن الملا صدرا كان قد شق طريق الانفتاح على العرفان من بوابة العقل بتأسيس قواعد مباحث الوجود المحكمة. وكان الإمام الخميني هو أحد ورثة هذا النهج، شهدت عليه آثاره المختلفة ومنها شرحه لدعاء السحر المروي عن الإمام الباقر عليه السلام.

فبين أيدينا كتاب يشهد على هذا التوسع والانفتاح، ويحكي عن نهج الحكمة المتعالية بل يسمو فوقها، ويضعنا في مشهد مغاير لمشاهد الفلسفة التقليدية والكلام الضيق في أبحاث معرفة الله.

إن مقارنة مدققة بين علم الكلام والفلسفة التقليدية والحكمة المتعالية ذات الطابع العرفاني في مباحث الأسماء الإلهية ترشدنا إلى بعض أوجه هذا الاختلاف. وقد استطاع الإمام الخميني بفضل نبوغه وروحه السامية أن يوصلنا

بعصر بذور الثورة المعرفية في صدر الإسلام؛ تراه يفعل ذلك وهو يستلهم من النصوص النبوية والولائية ويرسخ فينا أصالتها ودورها. وكان هذا الكتاب أول ما اختطه الإمام من مؤلفاته وهو في السابعة والعشرين من عمره؛ كتبه باللغة العربية، وذكر فيه أمهات مسائل معرفة الله وأسمائه، والعلاقة بين مراتب الوجود والحضرات الإلهية وموقع الإنسان الكامل فيها وبحث معرفة الذات والأسماء الذي يُطرح تحت عنوان «إلى أي مدى يمكن معرفة الله؟»، وكعاداته لم يهمل تلك الوصايا الأخلاقية المعنوية التي ارتبطت عنده بصورة عميقة بهذه المعرفة.

كتاب شرح دعاء السحر يخرج هذه المرة مع شروحات وتعليقات الهدف منها تيسير فهم بعض المسائل وجعل هذا الكتاب متاحًا أكثر لقراء العربية.

السيد عباس نورالدين

عربصاليم، 1445 للهجرة